مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (40) العدد (2)2018
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (40) No. (2) 2018

القيم والعلاقات الاجتماعية وقواعد الضبط الاجتماعي
بين مجتمعين: المتعين والافتراضي

د. عادل الذياب العلي*

(تاريخ الإيداع 18 / 12 / 2017. قبل للنشر في 25 / 3 / 2018)

□ ملخّص □

تهدف الدراسة الحالية إلى التعرف على طبيعة العلاقات الافتراضية وخصائصها المميزة، والتعرف إلى الأسباب التي تقف وراء اندفاع الأعداد الكبيرة من الناس إلى الالتحاق بالمجتمع الافتراضي والانخراط في علاقاته المختلفة من اقتصادية واجتماعية وعاطفية، وبناء حالة موازية لعلاقات المجتمع الواقعي. كما يهدف البحث إلى استكشاف ماإذا كانت القيم كقواعد وموجهات للسلوك والعلاقات الاجتماعية الواقعية تؤدي ذات الدور في المجتمع على الخط وهل يعد اللجوء الطوعي للمجتمع الافتراضي انسحابا طوعياً من المجتمع الواقعي، أم مجرد طفرة عابرة ؟.

استخدم الباحث المنهج المقارن بشكل رئيسي ومنهج التحليل التاريخي عند الحاجة بحسب مقتضيات الضرورة العلمية والمنهجية للإجابة عن تساؤلات البحث، وما ابتغاه من أهداف بخاصة وأن المنهج المقارن من المناهج المستخدمة على نحو شائع في البحوث والدراسات الاجتماعية التي تتطلع إلى الكشف عن مواطن التشابه والاختلاف بخصوص ظواهر بعينها. وهذا ينطبق على دراستنا الحالية. كما يفيد المنهج التاريخي في العودة إلى الماضي البعيد أو القريب للتعرف على تقنيات الاتصال والتواصل الاجتماعي ووضع كل ذلك في سياقه الصحيح وفق مقتضيات البحث وضروراته.

الكلمات المفتاحية: القيم – العلاقات الاجتماعية– العلاقات الافتراضية – الجماعات الافتراضية – قواعد الضبط الاجتماعي– الاتصال والتواصل.

* مدرس في قسم علم الاجتماع–كلية الآداب والعلوم الإنسانية–جامعة تشرين– اللاذقية– سورية

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (40) العدد (2)2018
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (40) No. (2) 2018

Values, social relations and rules of social control between the real and virtual communities

Dr. Adil Al-ali*

(Received 18 / 12 / 2017. Accepted 25 / 3 / 2018)

□ ABSTRACT □

The present study aims to identify the nature of virtual relationships and their distinctive characteristics, and to identify the reasons behind the rush of large numbers of people to join the virtual society and to engage in various economic, social, emotional and financial relations, establishing a parallel situation of common relations in the real community. The research also seeks to explore whether values as rules and guidelines for behavior and social relationships in the living societies play the same role in the virtual society? Is the voluntary resort to the virtual society is a voluntary withdrawal from the real society, or merely a transient leap?

The researcher mainly used the comparative and historical analysis method, to answer the research questions which formed the research problem, and the results of the basic and secondary assumptions and their validation , and the desired goals. The comparative method is common in research and social studies that seek to reveal similarities and differences regarding specific phenomena that are already forming or have already been formed. This is fully applicable to our current study. The historical approach serves in returning to the distant or near past to identify the techniques of communication and social networking and put all this in the right context according to the requirements of the research and its necessities and purpose.

Key words: Values, Social relations, Virtual relations, Virtual community, Virtual groups, Social control, Communication.

***Assistant Professor, department of sociology – faculty of arts and humanities – Tishreen university – Latakia – Syria.**

مقدمة

يعد المجتمع الافتراضي ظاهرة قيد التشكل أنتجها التطور العاصف حالياً على صعيد تقنيات الاتصال والتواصل عن بعد عبر الشبكة الرقمية، والذي أتاح فرصاً غير مسبوقة لتجاوز الحدود الزمانية والمكانية، والانخراط في نشاطات وعلاقات مختلفة عبر مواقع التواصل الاجتماعي، بيسر وسهولة وبتكلفة تكاد لا تذكر. إذ يكفي لأي عضو أن يلم ببضع خطوات بسيطة ليجد نفسه في فضاء رقمي يعج بالمنتسبين على اختلاف مشاربهم وأهوائهم ومجتمعاتهم الواقعية، متخفين في غالب الأحيان، وراء ألقاب وأسماء وصور تعبيرية، لا أساس لها في الواقع، وأحياناً يظهرون ويتواصلون، افتراضياً، بأسمائهم وصورهم الحقيقية ناشدين القيام بأنشطة مختلفة وبناء علاقات متنوعة تقابل ما هو متعارف عليه من نشاطات وعلاقات واقعية، وبالنتيجة إشادة مجتمع إفتراضي مواز للمجتمعات المتعينة. من هنا يبدو تعقب هذا الإقبال الكبير على الانتساب إلى المجتمع الافتراضي مدعاة للبحث والتقصي للوقوف على دوافعه وآثاره وما إذا كان اجتماعياً بالفعل، وما موقعه من القيم والعلاقات الاجتماعية المعيشة، ومدى صلته بقواعد الضبط الاجتماعي ذات الطابع التقليدي.

مشكلة البحث

هناك أكثر من سؤال يطرح حول الجاذبية الضمنية التي تقف وراء اللجوء الطوعي إلى ما هو افتراضي، وما يلبيه ذلك من احتياجات للأعضاء المنتشرين عالمياً على مساحة جغرافية مفتوحة ومترامية الأطراف من جهة، ومغلقة في الوقت نفسه عليهم في حدود ممكن افتراضي تقتضيه العضوية في الشبكة، وتتيح في آن معاً إمكانية تكاد تكون بلا حدود للاتصال والتواصل الافتراضي عن بعد، بغض النظر عن المكان والزمان المتعينين واقعياً. فمتى وكيف وكلما شئت يمكنك الدخول والخروج ووضع البدايات والنهايات بلا تحفظ، تبعاً لمقتضيات واحتياجات العضو وظروفه النفسية والاجتماعية والعاطفية، الأمر الذي يطرح أكثر من سؤال حول ما إذا كان الشرط الاجتماعي والأخلاقي، ممثلاً بالقيم وقواعد الضبط الاجتماعي، كمقاييس تقليدية للعلاقات والسلوك الاجتماعي، يتوافر حقاً لمثل هذه العلاقات والتفاعلات الافتراضية؟ وعما إذا كانت قواعد الضبط الاجتماعي المتعارف عليها في العلاقات الفعلية، والتي تتحكم باللعبة الاجتماعية المعاشة تصلح لأن تكون نموذجاً للقياس في علاقات المجتمع الافتراضي، أم أن ذلك سيكون أشبه بزواج اثنين من جنسين مختلفين في حال حصوله؟، خاصة وأن المجتمع الافتراضي، ليس سوى ملاذ آمن، على نحو ما، للراغبين بالتخفي داخل الشبكة الرقمية، بعيداً عن الشروط التي تحكم العلاقات الاجتماعية وقواعد الضبط المعتادة من قيم ومعايير عهدوها في المجتمعات الفعلية؟ نطرح هذه التساؤلات في وقت أخذت تظهر فيه إشارات استفهام كثيرة حول طبيعة الأشخاص والدوافع والاهتمامات الكامنة وراء السعي باتجاه الانخراط في العلاقات الافتراضية والبحث عنها.

أهمية البحث وأهدافه :

تستمد الدراسة الحالية أهميتها من واقع يشير إلى سطوة وسائل الاتصال الحديثة وشبكات التواصل الاجتماعي وبخاصة الانترنت بتقنيتها الرفيعة على حياة الناس ونشاطاتهم وعلاقاتهم، واستحواذها على اهتمامهم، يعبر عن ذلك أعداد الملتحقين بهذه المواقع وزياداتها المطردة من جهة، وساعات الاستهلاك والاستخدام اليومية ليلاً ونهاراً من جهة أخرى. بخاصة وأن المدينة الافتراضية مدينة لا تنام وتسمح للعضو بالولوج إليها متى وكيف شاء دون أي عقبات، وكذلك الخروج منها بيسر وسهولة عبر بضع خطوات آلية من أي مكان وفي أي وقت تتوافر فيهما خدمات الشبكة الرقمية. أما أهداف الدراسة فتتلخص في استكشاف موقع المجتمعين المتعين والافتراضي وموقع علاقاتهما الاجتماعية

من القيم وقواعد الضبط الاجتماعية التقليدية، كما يهدف إلى التعرف على خصائص المجتمع الافتراضي والتي تقف وراء جاذبيته والانتساب إليه، واستجلاء حقيقة العلاقات على الخط–العلاقات الافتراضية – فيما إذا كانت اجتماعية بالفعل أم لا؟، وما هي الآثار المترتبة على الانسحاب الطوعي من المجتمع المعيش إلى المجتمع الافتراضي.

منهجية البحث:

سوف نعمد في الدراسة الحالية إلى الاستعانة بالمنهج المقارن والذي يعد من المناهج المستخدمة بكثرة في دراسة النظم والظواهر الاجتماعية عن طريق جمع المعلومات الضرورية عنها، ثم تحليلها ومقارنتها، بغية الوقوف على أوجه التشابه والاختلاف بين النظم والظواهر المدروسة، بقصد الوصول إلى نتائج عامة حولها. كما سنلجأ للاستعانة بالمنهج التاريخي عند الحاجة لتحديد بعض الأصول المتعلقة بالبحث. ويرجع الفضل في استخدام المنهج المقارن على نطاق أوسع في دراسة الظواهر الاجتماعية إلى" أميل دوركهايم" أحد مؤسسي علم الاجتماع وواضع قواعد المنهج فيه. من هنا نرى أن هذه الشروط تنطبق على موضوع الدراسة الحالية والتي تتناول القيم، كقواعد للضبط الاجتماعي، والعلاقات الاجتماعية بين مجتمعين المتعين والافتراضي. وثمة صعوبات عادة ما تواجه عملية المقارنة تعود إلى تعقد العوامل والظروف المتعلقة بالحياة والظواهر الاجتماعية وتعددها، ولذلك سنلاحظ أن المقارنة في دراستنا الحالية سوف ترد كلما كان ذلك ضرورياً.

النتائج والمناقشة:

أولاً– القيم وقواعد الضبط الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية الواقعية:

أ–القيم من منظور تاريخي: تشير كلمة قيمة في المعاجم اللغوية إلى أنها تحمل معنى اقتصادي بالمقام الأول فقيمة الشيء قدره والقيم لغة هو ما لا يوجد مثله في السوق، أو يوجد لكن مع التفاوت المعتد به في القيمة (أبو جيب ، 1982). ويأتي لفظ القيم مصدرا بمعنى الاستقامة والاستقامة اعتدال الشيء واستواؤه، وأمر قيم أمر مستقيم، وخلقك قيم أي خلقك حسن، والقويم : المعتدل المستقيم (رضا، 1960) .

وقد ورد في القرآن الكريم ألفاظ متعددة ترجع إلى القيمة، منها: " إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم " (سورة الإسراء ، الآية9) والأقوم هنا تعني الأعدل والأصوب (السيوطي، 1994)، ووردت بمعنى الأحسن والأوضح (ابن كثير،1983). وبذلك تفيد القيمة معنى الرجحان من جهة، وتعدد الخيارات الخاصة بأشكال الأحسن والأفضل والأصلح وتنوعها، وهذا يشير إلى تمتع المفهوم بالمرونة المناسبة بحيث يتمثله أكبر عدد من الناس. من الواضح أن معنى القيمة تجاوز في اللغة الثمن ليتناول الإنسان، فيصف سجاياه وخصاله وشمائله وما يتصل بعلاقاته وغاياته ومثله، مما يعني أنه معنى يدل على الكمال أكثر من النقصان الذي يحمله المعنى الاقتصادي للكلمة.

ومع شيوع استخدام الكلمة في مختلف المجالات والميادين اللغوية والرياضية والاقتصادية والفلسفية، ولدى علماء الاجتماع والنفس والتربية، أطلقت القيمة على كل ما هو جدير باهتمام المرء وعنايته لمسوغات اقتصادية أو نفسية أو اجتماعية أو أخلاقية أو جمالية أو فنية. من هنا تبدو الإحاطة بمفهوم القيم ومعناها أمراً صعب المنال نظراً لتشتته بين علوم ومعالجات فلسفية واجتماعية عديدة ومختلفة، غير أن الفلسفة بشكل عام وفلسفة الأخلاق بشكل خاص، تعد بلا منازع أول من أعطى القيم معناها ومحتواها، بالرغم من أن الفلاسفة أنفسهم نقلوا كلمة القيمة من ميدان

الاقتصاد إلى الفلسفة، فجعلوا بذلك القيم موضوعاً فلسفياً بالدرجة الأولى حين استخدموها للدلالة على معان أخلاقية كانت شائعة في الفلسفة القديمة، غير أن المصطلح نفسه لم يكن معروفاً بعد.

لقد جعل أفلاطون العادات والتقاليد دعامات للقوانين الأخلاقية، يجيل الفيلسوف عقله فيها، ليخرج بقواعد تنظم السلوك في الحياة وهي بمثابة أحكام على أفعال الإنسان خيرة كانت أم شريرة (أفلاطون، 1959)، وأكد سقراط على أن العدالة والتقوى والجمال هي ما يجب أن يكون محور اهتمام الفلسفة، وبذلك كان يرسي دعائم قيم الإنسان، كمصدر للخير والشر، ويعد سقراط أول من ربط بين الأخلاق والسياسة والمجتمع جاعلا من الحكمة وهي عدم مناقضة العقل قيمة القيم ومن فقدها أصبح بلا قيم (موسى، 1943). ومع أرسطو تم تكريس الاتجاه نحو الجانب العملي من الحياة الاجتماعية حين أقام صرح مذهبه الأخلاقي على حد " الوسط "، ويبقى الخير، عنده، غاية جميع أعمال الإنسان وهو السعادة القصوى، والتي توصل إليها الفضائل الأخلاقية (أرسطو، 1924).

وتدل قراءة الفلسفة العربية الإسلامية على أنها قد عالجت مفاهيم قيمية عدة كتلك التي عرفتها الفلسفة القديمة، وقد اعتنت بمفهوم " الاعتدال " اعتناءً خاصاً، وتعرف الفلسفة العربية الإسلامية الاعتدال بأنه المرتبة الوسطى المحمودة بين النقيضين المذمومين، فعدم الغلو والشطط في كل شيء هو محل الاعتدال، وينطبق ذلك على الماديات والمعنويات، والاعتدال هو الوسيلة التي تمنع من الوقوع في الخطأ والشر والقبح وكل ما هو سلبي مذموم. وإذا كانت الجمالات كافة ترتبط بالخير بمعناه الوجودي، فإن الجمال الأخلاقي يرتبط بالخير بمعناه الأخلاقي الاجتماعي، أي الإنسان. يقول الفارابي : " الخير الإرادي والشر الإرادي وهما الجميل والقبيح فإنهما يحدثان عن الإنسان خاصة " (الفارابي، 1907).

ومع عصر النهضة وجد مفهوم القيمة صدى له في المذاهب التي سعت وراء حرية التفكير التي تتيح للإنسان المفاضلة بين الأمور واختيار أفضلها كما يقول ديكارت (غالب، 1979). ويقدم مالبرانش تصوراً لأخلاق وقيم عامة لدى الناس، تكتسب أهميتها من عموميتها، وهي متغيرة حسب الزمان والمكان (كريسون، 1962). أما سبينوزا فجاء ليقول بنسبية الخير والشر، فأدخل بذلك مفهوم التقدير على الأخلاق، فما هو خير لإنسان قد يكون شراً لسواه (زكريا،1981). ثم جاء من يقول بأن الغريزة والعاطفة، وليس العقل، أساس الأخلاق، فالمنفعة الخاصة (حب الذات وإعلاء مصالحها) هي التي توجه السلوك والأفعال الإنسانية الاجتماعية، ونحن لانحب الآخر في حقيقتنا، بل نحب الخير الذي يأتينا بسببه، على حد تعبير هوبز (الطويل، د.ت). أما بنتام فقال بالمنفعة العامة، وقاعدتها أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس (رابوبرت،1969).

غير أن الاستخدام الواسع لمفهوم القيمة ومصطلحها والحديث عن نظرية للقيم لم يتم إلا خلال القرن العشرين حيث استخدمت كلمة القيمة لتدل على الرجحان، فهي ليست مفضلة وحسب بل من الأفضل أن تكون كذلك. ويبقى ميدان المنافع والتفاعلات والعلاقات الاجتماعية القائمة بين الناس ميداناً فسيحاً لاشتقاق القيم، وهذا ما يؤكده ريمون رويه بقوله:" لا يكون الشيء نافعاً إلا بالإضافة إلى بعض الكائنات وفي بعض الظروف فالعالم ليس طبيعة وحسب بل علاقات وروابط متحولة تقوم بين كائنات متبدلة ومتحولة وكذلك القيم"(رويه، 1960).

ب–القيم كقواعد للضبط الاجتماعي: تؤدي القيم وظائفها في المجتمع التقليدي بوصفها قواعد للضبط الاجتماعي والأخلاقي تقاس بها أوجه السلوك المختلفة، وضروب التفاعلات والعمليات والعلاقات الاجتماعية المتنوعة صحة وخطأً، وهي، أي القيم ميزة الإنسان المضافة إلى ميزتي العقل والعمل اللتين عرف بهما دون سائر المخلوقات،

وقيم الإنسان كقواعد للضبط الاجتماعي هي ميزان الخير والشر لديه، في حين لا تمتلك المخلوقات الأخرى القدرة على مقايسة الأمور وتقديرها وفق معايير اجتماعية وقواعد أخلاقية محددة تنظم علاقاتها في محيطها (صليبا،1979).

والقيم إلى ذلك "اجتماعية"، أي ارتبط نشوئها بخبرات البشر أثناء أدائهم لوظائفهم ومعايشتهم لبعضهم وانخراطهم في تفاعلات وعلاقات متبادلة، وخروجهم بشرائع غير مكتوبة يتناقلونها عبر الأجيال وتدعى القيم (كوفيليه، 1960). كذلك تتمتع القيم كقواعد للضبط الاجتماعي بكونها ذات "قوة ملزمة"، إذ تعتمد على ذلك المخزون الكبير من الأعراف (الأوامر والنواهي) التي يؤمن بها الناس ويطيعونها من موقع الإيمان بها في حين أن الخضوع للقوانين وطاعتها يتم بصرف النظر عن هذا الإيمان (كوفلييه، 1960). والقيم كذلك "قوة فاعلة" فهي ليست مجرد أصداء للأحوال المعيشية والطبيعية بل يمكنها أن تكون عاملاً محدداً للأحوال الطبيعية والمعيشية(كول،1964).

كما تتصف القيم بأنها "معيارية" فالمعيار قاعدة تقاس بها ضروب السلوك والأفكار والعقائد والأوضاع والأشياء جيدة كانت أم سيئة، و بالاستناد إليها نحكم على قيمة فعل(سلوك) ليس فقط على أنه الحالة النموذجية المطلوبة، بل وللدلالة على حالته الطبيعية لا أكثر ولا أقل. والقيم إلى ذلك "نسبية"، فما هو قيمة في مجتمع ما قد لا يكون كذلك في مجتمع آخر، وما هو قيمة في زمن ما قد لا يكون كذلك في زمن أخر.

وتتصف القيم أيضاً بأنها "مرنة"برغم إلزاميتها وقدرتها على القهر، إذ تقدم كيفيات أكثر عمومية لنتقبلها في ممارساتنا السلوكية، بحيث لا نخالف معاييرها السائدة وبحيث يتبعها ويقر بها أكبر عدد من الناس. وتحتاج القيم إلى"موضوع" تدور حوله وهذا يعني أنها على علاقة بالممكن الذي توفره التجربة والممارسة الاجتماعيتين، فبقدر ما تتوافر الممكنات تتوافر موضوعات القيم. يقول يوسف كومبز:" التجربة حين تنتمي إلى القيم يتحول ما هو اختباري إلى قيمي، والقيم تستحوذ على اسمها وتستحقه لأنها تسهم في نوع من تعالي السلوك(السلوك النموذجي) وهي من تدل السلوك على مايجعله سوياً" (كومبز،1975) .

ج-العلاقات والتفاعلات والأفعال الاجتماعية: يعد التفاعل الاجتماعي، وهو أساس العمليات والعلاقات الاجتماعية، من أكثر المفاهيم انتشاراً واستخداماً في علم الاجتماع، نظراً لارتباطه بالقيم والأفعال أو السلوكات والعلاقات والعادات والاتجاهات. ولذلك تعددت وتباينت استخداماته في الدراسات والبحوث الاجتماعية. والتفاعل الاجتماعي يتضمن مجموعة توقعات من جانب المشتركين فيه، كما يتضمن إدراك الفرد الاجتماعي وسلوكه في ضوء المعايير القيمية والاجتماعية والأخلاقية التي تحددها الثقافة السائدة في مجتمع ما. وتشير التفاعلات والعلاقات الاجتماعية من حيث المبدأ، إلى وجود شخصين أو أكثر منشئين بصورة اجتماعية، لكل منهما أفعال تقابل بردود أفعال مناسبة وينجم عن اجتماعهما، أي الفعل ورد الفعل، ما يسمى بالتفاعل الاجتماعي في بيئة اجتماعية وطبيعية معينة ومعاشة، وعن التفاعل الاجتماعي تنشأ ضروب مختلفة من العلاقات الاجتماعية ينخرط فيها أعضاء المجتمع أثناء تلبية حاجات بعضهم بعضاً في ظل ما اتفق على تسميته المعايير والقيم الاجتماعية والأخلاقية والدينية كقواعد للضبط الاجتماعي ترسم أفق ماهو كائن في ضوء ما يجب أن يكون .

وتعرف العلاقات الاجتماعية بوصفها قاعدة الاجتماع الإنساني في علم الاجتماع بأنها:" الروابط والآثار المتبادلة بين الأفراد والجماعات، وتنشأ من طبيعة اجتماعهم وتبادل مشاعرهم واحتكاكهم ببعضهم بعضاً، ومن تفاعلهم في بوتقة المجتمع وفي حيز محدد"(القريشي، 2012). يشير النص السابق إلى أن العلاقات الناجمة عن التفاعل الاجتماعي هي من أهم ضرورات العيش في مجتمع من المجتمعات، ولايمكن تصور مجتمع أو حياة اجتماعية دون علاقات اجتماعية. وثمة أنواع لا حصر لها من العلاقات الاجتماعية وبقدر ما تتنوع الحاجة إلى الاجتماع البشري

وأنشطته المختلفة تتنوع العلاقات التي ينخرط فيها الأفراد داخل هذا المجتمع أو ذاك، وجميعها تقوم على التفاعل وتستند إلى المشاركة والتشارك في قيم وروابط وثقافة عامة وسائدة تنهل منها صنوف التفاعلات والعلاقات والعمليات الاجتماعية محدداتها وضوابطها.

وترتكز العلاقات والعمليات الاجتماعية على التفاعل الاجتماعي، كما يرتكز التفاعل بدوره على الأفعال والسلوكات الاجتماعية، والفعل الاجتماعي هو كل فعل إنساني يقوم به صاحبه فرداً كان أم جماعة استناداً أو استجابة لسلوك آخر صادر عن فرد أو جماعة أخرى، سواء كان هذا السلوك واقعاً أم متوقعاً (فيبر،2002). وللفعل الاجتماعي أربعة أنواع : الفعل أو السلوك العقلاني، وهو سلوك يختار الفاعل بشكل هادف أفضل الوسائل للوصول الناجح إلى غاياته العقلانية. والفعل أو السلوك غير العقلاني وهو سلوك يختار فيه الفاعل الوسائل الملائمة للوصول الناجح إلى غاياته غير العقلانية. والسلوك أو الفعل العاطفي وهو سلوك تحدده المشاعر والعواطف، والسلوك أو الفعل التقليدي وتحكمه العادات والتقاليد (السد.2003). كما نلاحظ أن الأفعال الفردية على فرديتها محكومة بالتفاعل الاجتماعي فهو شرط ضروري لوجود أي نوع من أنواع النشاط الاجتماعي التي يقوم بها الفرد مع الآخرين وفي بيئة فعلية معاشة ومحددة. فالتفاعل الاجتماعي عملية اجتماعية ديناميكية تقوم بوظيفتها في حيز محدد واجتماعي الصفات، ويرتبط أعضاء الجماعة المحددة، سواء كانت الجماعة مجتمعاً كبيراً أم فئة اجتماعية، مع بعضهم بعضاً عقلياً ودافعياً بصورة اجتماعية، عبر سلسلة متبادلة من الاتصال والتواصل.

إن الأفعال وردود الأفعال، أو مانسميه مظاهر السلوك المختلفة المؤسسة للتفاعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية، لابد لها أولاً من مجموعة من المعايير التي تحكم التفاعل الناشيء عنها من خلال وجود نظام معين من التوقعات الاجتماعية في إطار الأدوار والمراكز المقدرة داخل المجتمع، والتفاعل الاجتماعي هو وسيلة الاتصال بين الأفراد والجماعات بعضها ببعض فتنشأ الحياة الاجتماعية متمثلة بالعمليات والعلاقات القائمة بين الناس في مجتمع من المجتمعات. وثانياً لابد للأفعال وردود الأفعال من مكان محدد تنشأ على أرضه، لتقوم تالياً بين أفراد يتعايشون ويتبادلون المنافع على اختلافها، ويلبون احتياجات بعضهم بعضاً، المادية والمعنوية، في ضوء ما استقرت عليه قواعد الضبط الاجتماعي والأخلاقي والديني التي عرفوها (أبو عرقوب، 2005)، وبذلك يكون المكان أساس لابد منه أو الشرط البيئي الفعلي لقيام التفاعلات الاجتماعية، والانخراط فيما ينجم عنها من علاقات توسم بأنها اجتماعية على تنوعها وثرائها واختلافها.

د-القيم والسلوك الاجتماعي : يصوغ الإنسان في المجتمعات الواقعية المعاشة والتقليدية، أو المجتمعات المتعينة في المكان والزمان المحددين، أساليب السلوك وصور التصرف وما ينخرط فيه من عمليات وتفاعلات وعلاقات اجتماعية مختلفة من فئات القيم السائدة والمقررة في محيطه وبيئته الاجتماعية، وهو يمضي في سلوكه مؤكداً قيمة ما أو مجموعة من القيم، غير أن القيمة برغم ارتباطها بالسلوك ليست ذات وجود مادي، يقول عادل العوا : " القيمة شرط كل وجود، ولكنها ليست بذاتها وجوداً " (العوا، 1960)، إنها ما نرغب ونبتغي تحققه، وهي تظهر دائماً في شكل مطالب جديدة لصاحب حاجات كثيرة هو الإنسان، وهي حاجات منها الأولي ومنها الثانوي أو الكمالي، وتنمو بتنوع مستمر، وتأتي الأخلاق لتضيف مطالب جديدة، وهنا تبدو القيمة فاعلة حين تحضر في سلوك الإنسان الذي يريد ويحتاج ويعمل فتوجه سلوكه وتحدده :" القيم حافز عمل وأفق التزام وسبب سلوكنا وتعبيرنا عن ذواتنا، وهي لا تخص شخصاً أو فئة بعينها، بل هي عامة في المجتمع لكنها ليست بدرجة واحدة فيه " (العوا، 1960).

وفق هذا المعنى تتسم القيم بالعديد من الخصائص، فهي معرفية من حيث الوعي بما هو جدير بالرغبة، وهي وجدانية من حيث شعور الفرد حيالها إيجاباً أو سلباً، وهي سلوكية في الممارسة العملية من حيث كونها موجه للسلوك أو الفعل الاجتماعي في علاقة اجتماعية ما. من هذا المنظور تبدو القيم وكأنها تقابل الواقع ولا تقابله، تقف فوقه ولا تقف، ترتبط بالتجربة الاجتماعية للأشخاص والجماعات، وتؤدي دورها من خلال حاجة المجتمع إليها كمقوم وموجه من جهة، وهي إلى ذلك معتقدات تتصل بالمرغوب وغير المرغوب وتعبير عن الحاجات والتطلعات من جهة أخرى.

إذا كانت القيم قواعد ضبط اجتماعية ومعايير أخلاقية توجه السلوك الاجتماعي وتقومه، فما الذي يجعل السلوك اجتماعياً؟. طالما أن الشخصية الاجتماعية نتاج تفاعل بين طبيعة الفرد الإنسانية والعوامل البيئية، فإن الأمر ذاته ينطبق على كل أشكال السلوك الإنساني لكي يكون اجتماعياً، لأن السلوك هو الآخر وظيفة اجتماعية تجمع بين الذات والبيئة المحيطة في تفاعل مستمر، وإذا لم تتوافر المقومات التي تساعد على هذا التفاعل فإن السلوك سيجري في مسالك غير ظاهرية بعد أن كان يجري في مسالك ظاهرية مقبولة من المجتمع، ويصبح النشاط الممارس غير اجتماعي، و بذلك تطفو على السطح المظاهر المختلفة من انحراف السلوك. فماهي علاقة ذلك بالقيم؟ إن القيم هي من يحدد المسالك الظاهرية للسلوك الاجتماعي، أي مظاهر السلوك المقبولة اجتماعياً، لأنها تملك قوة الأمر والنهي الاجتماعيين، وكل فرد في المجتمع يشعر برقابتها عفواً أو كرهاً، لأنها تحمل في داخلها، وهذا جزء من جوهر وجودها، معنى الإلزام. وهنا تبرز القوة الإكراهية للقواعد الاجتماعية، والقيم كقواعد ومعايير ناظمة للسلوك الاجتماعي لا تخرج عن هذا السياق. يقول ماكيفر : " تكره قواعد السلوك الاجتماعي الفرد على تقبل رقابتها حين تتعارض ميوله معها، فقيم الصالح العام، على سبيل المثال يمكن أن تتعارض مع المصالح الشخصية للأفراد "(ماكيفر، بيدج، 1961) .

من الواضح أن القيم كقواعد للضبط الاجتماعي والأخلاقي تنشأ في غمرة التأثير والتفاعل المتبادل بين الناس من جهة، والمحيط الذي يعيشون فيه ويطلقون عليه أحكاماً قيمية من جهة أخرى، يضاف إلى ذلك أن مظاهر الحياة المختلفة ليست قيماً بحد ذاتها، وإنما هي قيم بمقدار تجسيدها للأهداف والغايات والاحتياجات والتطلعات المادية منها والمعنوية، ولذلك فإن ما يقوم به الناس ويفعلونه ويمارسونه من أفعال وسلوكات ويقيمونه من علاقات إنما يعبر عن قيمهم، أو كما يقول إدلر : " ليست القيم سوى أسماء لعمليات الناس الاجتماعية وللاختيارات التي يقومون بها " (Adler.1981). وعلى هذا الأساس من الممكن القول أن القيم سلوكات نموذجية أو نوع من تعالي السلوك ينهل منه الأفراد صور سلوكياتهم التي يمارسونها في الحياة اليومية.

إن الناس لا يتصرفون ويسلكون كيفما اتفق بل وفق ظروفهم حيث يظهر لديهم حس لاختيار الأكثر قبولاً وأهمية طبقاً لما يرونه مناسباً ولما يقدرونه من ظروف وبما يتوافق مع ما أقره المجتمع من قواعد أخلاقية واجتماعية مقبولة وناظمة، من هنا يصبح بالإمكان رصد كل تصرف وكل سلوك أو اتجاه وكأنه تعبير عن القيم، خاصة إذا عرفنا أن القيم ليست سوى خبرات الناس المكونة في ظل ظروف حصلت وتحصل باستمرار، وما البشر الذين يعيشون سوى جهاز قيم يعمل باستمرار لأن ظروف الحياة والعلاقات وخبراتهما لا تنقطع أبداً.

من الواضح أن القيم ليس بوسعها الاستقلال عن الواقع المعيش وعن علاقاته السائدة، ولذلك تعتبر ظاهرة اجتماعية من جهة وأنماطاً سلوكية من جهة أخرى استقرت على هذا النحو أو ذاك بفعل ماهو سائد من نظم وعادات جمعية وأعراف وتقاليد يضطلع بها أناس يقيمون علاقات فيما بينهم، وينتجون حياتهم وقيمهم. يقول كولي: " القيم علاقات وعمليات اجتماعية ومن غير الممكن أن تكون غير ذلك " (Cooly,1980) .

إن القيم نتاج فاعلية اجتماعية، نتاج صلات وعلاقات يقيمها الناس فيما بينهم، أنتجت الخبرات المختلفة والتي أضحت منبعاً للقيم في أثناء الممارسة الاجتماعية، وما قيمنا التي نحكم بها على ماهو جدير بأن يكون قيمة أم لا سوى نتاج اجتماعي، نتاج المجتمع الذي يقرها ويمدنا بها لتحوز على رضانا، ثم تتوضع فوقنا لتمارس سلطانها الذي منحه المجتمع لها، وتوجه من بعد ذلك سلوكنا. إن اختلاف المعايير القيمية من مجتمع لآخر يشير بوضوح إلى الأساس الاجتماعي للقيم، هذا الأساس الذي فرض تنوعها واختلافها تبعاً لتنوع المجتمعات واختلافها، واختلاف طرق وظروف معيشتها وبالتالي خبراتها وأساليب ثوابها وعقابها التي تلزم الأفراد بالطاعة، وتجعلهم إضافة إلى ذلك يحملون هذه النظرة أو تلك أي يتبنونها إزاء ما يصادفهم في حياتهم من أحوال. والقيم إضافة إلى كونها نتاج فاعلية اجتماعية هي نماذج مثالية تحتذى، بوصفها قواعد أخلاقية واجتماعية تضبط من خلال الحق والواجب، كمفهومين أخلاقيين، أسس العلاقات والتفاعلات الاجتماعية الكائنة، على هدي ما يجب أن يكون والمختصر بكلمة قيمة، تلك هي القيم .

ثانياً– المجتمع الافتراضي والجماعات الافتراضية اصطلاحا ونشأة ومفهوماً :

أ–المجتمع الافتراضي اصطلاحا وتعريفاً: يعد المجتمع الافتراضي "Virtual Community" من المفاهيم الجديدة التي برزت من خلال ثورة الاتصالات الحديثة، ونظراً لحداثته تعددت الترجمات حول مصطلحه والتي تسعى لتحديد طبيعة المفهوم الجديد. وعادة ما تكون المصطلحات الجديدة أكثر إثارة للجدل والاختلاف منها إلى الاتفاق، وليس أدل على ذلك من الاختلاف الدائر حول تحديد المجتمع الافتراضي. فقد ترجم أحمد زايد المصطلح إلى "الجماعات الفضائية" (زايد، 2003)، كما ترجم نبيل علي كلمة " Virtual"على أنها "خائلي"، وهي تشير إلى ذروة ما وصلت إليه تكنولوجيا المحاكاة الرقمية والتفاعل بين الإنسان والآلة، وتقوم الجماعات الخائلية على واقع خائلي هو ثمرة هندسة الخيال التي جمعت في مكان واحد متسق بين العلم والفن والتكنولوجيا. وثمة كائنات خائلية تضاف في كل يوم (جماعة خائلية– مدن خائلية– مكتبة خائلية– سياحة خائلية– جنس خائلي) ليصبح "Virtual Community" الجماعات الخائلية (علي، 2005). أما شاكر عبد الحميد فقد ترجم مصطلح " Virtual" إلى "افتراضي" (عبد الحميد،2009) وبإضافة كلمة واقع يصبح الواقع الافتراضي واقع يحاكي الواقع الحقيقي ولكن من خلال عمليات الكترونية رقمية ترتبط بعالم الكمبيوتر والشاشات وتكنولوجيا الاتصال والتواصل المتقدمة، حيث استغراق الأفراد واندماجهم في عالم من الإبداع التكنولوجي الاتصالي، وبرغم أن الواقع الافتراضي والجماعة المنخرطة فيه ليسا واقعاً بمعنى الكلمة إلا أن الأفراد فيهما يتحدثون ويحبون ويكرهون وينفعلون،أي أنه واقع ينتج تأثيراً واقعياً على مستخدميه.

لقد تنوعت التعريفات حول مفهوم الجماعات الافتراضية، بين ذوي التخصصات المختلفة، ما بين مهتمين بعلوم الحاسب والاتصالات، ومهتمين من علماء الاجتماع ورجال السياسة،وكلها تشير على ما بينها من اختلاف إلى جماعات تشكلت إثر الثورة المعلوماتية التي أتاحت الفرصة لتقليص التباعد الجغرافي مما أتاح الفرصة للاتصال بين أفراد يقعون عبر مسافات متباعدة يجمع بينهم نوع من الإحساس بالولاء والمشاركة.

وعرف Jonathan Layzer الجماعات الافتراضية بأنها: " تجمعات تشكلت من خلال شبكة الإنترنت لا يقطن أعضاؤها في بوتقة جغرافية واحدة ولكنهم موزعون في أنحاء مختلفة ومنتشرة حول العالم، يجمع بين هذه التجمعات اهتمامات مشتركة ومختلفة وتتعدد أنماط هذه التجمعات ما بين تجمعات تجارية وتجمعات طبية وتتسع لتشمل أنماط أخرى متعددة " (حمادة، 2001). ويرى EV. Brenner أن مفهوم الجماعات الافتراضية : " مفهوم مركب يشير إلى علاقات تظهر بين الأفراد الذين يتشاركون عبر الإنترنت، و استغل هذا المجتمع التقنيات الإلكترونية

وأدواتها في تحقيق وتنفيذ مشاركات اجتماعية "(زايد، 2006). وقد طرح برينر(Brenner) هذا المفهوم في المؤتمر السنوي الذي عقد في لندن في أيلول من عام 2001، والذي كان موضوعه Virtual Community .

أما نبيل علي فيعرف المجتمع الافتراضي بأنه: " تجمعات اجتماعية تجمع بين أصحاب الاهتمامات المشتركة وأهل التخصص الواحد وأصحاب الرأي وجماعات السمر والدردشة– وتبادل المعلومات والنوادر، ويمكن لأي عضو في هذه الجماعات أن يبث حديثه لجميع أعضائها دون استثناء، أو يختص فريقا منهم أو يسر لفريق بعينه ما يريد أن يحجبه عن الآخرين، ويمكن للعضو أن يقدم نفسه تحت أسماء مستعارة بل ويمكن أن يتنكر العضو في شخصيات متعددة" (علي، 2009).

وعرف بسيوني إبراهيم حمادة التجمعات الافتراضية على أنها: " تجمعات اجتماعية تظهر عبر شبكة الإنترنت تشكلت في ضوء ثورة الاتصالات الحديثة تجمع بين ذوي الاهتمامات المشتركة، يتواصلون فيما بينهم ويشعرون كأنهم في مجتمع حقيقي "(حمادة، 2000) . وأشار أحمد زايد إلى الجماعات الافتراضية بأنها تجمعات اجتماعية تظهر عبر شبكة الإنترنت عندما يدخل عدد كاف من الناس في مناقشات عبر فترة كافية من الزمن يجمع بينهم شعور إنساني كاف بحيث يشكلون مواقع للعلاقات الشخصية عبر الفضاء الإلكتروني (زايد،2006).

من الواضح أن مصطلح المجتمعات المتخيلة قد أصبح من المصطلحات الشائعة و يشير إلى تلك الأنماط من العلاقات والأدوار والمعايير والنظم واللغات التي تطور بوساطة الأفراد خلال عمليات الاتصال المباشر على الخط ،غير أنه لا يزال مصطلحا إشكالياً. ويلاحظ عدم وجود اتفاق على تعريف واضح جامع ومحدد وشامل للتجمعات والجماعات الافتراضية أو المجتمعات على الخط، وما هو موجود عدد متباين وغير محدد من التعريفات الكثيرة المتداولة والتي تتعلق بالمجتمعات الرقمية، وإذا كنا لا نستطيع الإحاطة بها جميعاً فمن الضرورة بمكان عدم تجاهلها كما لابد من أخذها بعين الاعتبار، ولكن سنركز على معنى التفاعلية في الإنترنت وفحواها، وعلى نشأة المجتمع الافتراضي وخصائصه المشتركة علها تمدنا بالمعنى.

ب– نشأة المجتمع الافتراضي وخصائصه المشتركة: تعود بدايات نشأة المجتمع الافتراضي (المجتمع على الخط) إلى فترة الستينيات مع ظهور شبكات الحواسيب للأغراض التعليمية مثل شبكة بلاتو، وكذلك ظهور شبكة آربانت المعروفة في فترة لاحقة من أواخر الستينيات وأوائل ا لسبعينيات وغير ذلك من شبكات الحواسيب في السبعينيات والثمانينيات، وبخاصة مع انتشار استخدام لوحات الاتصال المحلي لإتاحة نفاذ عام وواسع للتكنولوجيات الجديدة آنذاك. ومن أهم المجتمعات الافتراضية المحلية المعنية كان مجتمع محلي افتراضي يدعى ويل في سان فرانسيسكو، كما ظهر مجتمع نظام تويكس في لندن، و" cix " في باريس ، و CalvaCom في الولايات المتحدة، ويوزنت وسيانل، وكانت أهم نشاطات هذه المجتمعات تتمحور حول التجارة الإلكترونية والتعليم الإلكتروني والاتصالات الإلكترونية .

وتوصلت مجموعة من الأكاديميين، في ورشة عمل عقدت عام 1996إلى تحديد خصائص مشتركة تطورت وتبلورت من بعد ذلك أكثر فأكثر تمت ملاحظتها بين المجتمعات الافتراضية أو المجتمعات على الخط تتلخص في الآتي: أنها تقوم على وجود الغرض المشترك والاهتمامات المشتركة بين الأعضاء، وعلى وجود المشاعر المشتركة والتفاعل المتصف بالاستمرارية (تكرار الأنشطة والحماس المتبادل) والدعم والنصيحة وفق طبيعة الجماعة الافتراضية. كما أنها تقوم على وجود وسيلة وفضاء للتواصل، هي منتدى أو غرفة دردشة أو موقع تواصل اجتماعي أو بريد أو مدونة وغير ذلك من الوسائط، مما يتيح لجميع الأعضاء الوصول إلى الموارد المشتركة والنفاذ إليها، وهناك سياسات

ولوائح معتمدة لتحديد الوصول لهذه الموارد، ويعني ذلك وجود وتوافر المعلومات والدعم والخدمات أمام جميع الأعضاء، كما يعني وجود إطار مشترك للتقاليد الاجتماعية، واللغة، والبروتوكولات المتبعة، الأمر الذي يدل على أن المشتركين الأعضاء لديهم أدوار مختلفة، ولهم سمعتهم ومكانتهم الاجتماعية والعملية والفكرية والثقافية. كذلك تتميز الجماعات الافتراضية بوعي الأعضاء لحدود العضوية وهوية الجماعة من كلمة مرور واسم مستخدم وبيانات وقواعد تنظم المشاركة والتفاعل، ويعد ذلك بمثابة المعايير المبدئية للعضوية في المجتمع المعني. يضاف إلى ذلك أن المجتمع الافتراضي أصبح له تاريخ ووجود على فترة من الزمن، كما أصبح لديه أحداثاً ملحوظة وطقوساً تمارس من قبل الأعضاء إضافة إلى التفاعل والبناء.

ومن أهم الخصائص والسمات المميزة لهذا المجتمع أن أعضائه يأتون من بيئات طبيعية مشتركة هي المجتمعات الواقعية التقليدية، ليكتسبوا العضوية طوعياً في المجتمع الافتراضي والإسهام في دعمه، متجاوزين الحدود الجغرافية والعرقية والقبلية التي تتشكل منها الجماعات والمجتمعات التاريخية والواقعية. ولا يحدث التواصل والاتصال وجهاً لوجه(face-to face) في المجتمعات الافتراضية بل من خلال قنوات اتصال الكترونية تستخدم فيها الكلمة والصوت والصورة، أو من خلال ما ينجم عن مزج ذلك، وفي حال التواصل عن طريق الكتابة لا يسمع الصوت ولا ترى صورة، ولكن تم تأمين الاتصال للتفاعل صوتاً وصورة (الديربي،2013).

ج- المجتمع الافتراضي نحو إطار للمفهوم: من خلال الطرح السابق حول مصطلح المجتمعات والجماعات الافتراضية ونشأتها وخصائصها يمكن التوصل إلى ما يمكن أن ندعوه إطاراً عاماً للمفهوم المتعلق بها تحدده الاستنتاجات الآتية والتي نستطيع القول أنها تنم عما يمكن الاتفاق حوله بخصوصها:

1- تشير الجماعات الافتراضية إلى أنها تجمعات اجتماعية لا مكانية، بمعنى لا يشكل أعضاؤها تجمعاً مكانياً إذ لا يجمع بين أعضائها إطار جغرافي، وإنما تتسع لتشمل أفراداً ينتمون إلى هويات وقوميات مختلفة متجاوزة الحدود المكانية.

2- تشير الاصطلاحات الآنفة وكذلك الخصائص إلى أن هناك وسيلة تجمع بين أعضاء هذه التجمعات المنتشرة في الفضاء الرمزي وهي الشبكة الدولية للمعلومات.

3- هناك اتفاق بين التعريفات الموضوعة على وجود اهتمامات مشتركة بين أعضاء الجماعات الافتراضية، إذ يشترط لعضوية الفرد في إحدى الجماعات الدخول إلى موقع الجماعة التي تتفق واهتماماته ليتقابل مع أعضاء آخرين من نفس الاهتمام بشكل مستمر أو متقطع.

4- يمكن لأي عضو في الجماعة أن يدخل في مناقشات مع فرد أو أكثر تتعلق بمضامين تتفق واهتمامات الأفراد، كما يمكن للفرد أن يشارك في أكثر من جماعة وذلك بحسب ميوله واهتماماته.

5- من خلال هذه الرؤية يمكن القول أن هناك تقاطعات بين المجتمعات الحقيقية والمجتمعات الافتراضية، إذ أنه في الغالب يحدث بين المتفاعلين افتراضيا مثلما يحدث في الواقع الحقيقي ولكن ليس عن قرب، ويستطيع المنخرط في هذه التفاعلات أن يتجه بالحديث الوجهة التي تتناسب مع اهتماماته، واهتمامات المتشاركين معه في ذات الجماعة، حيث تتيح هذه التجمعات حرية قد لا تكون متوافرة في الواقع المعاش مثلما هي في الحيز الرمزي.

6- يشير مفهوم المجتمع الافتراضي إلى البرمجيات المستخدمة من حيث تجهيزها واستعمالها، كما يشير في الوقت ذاته إلى مجموعة معينة من مستخدمي الإنترنت، وبذلك يكون المجتمع الافتراضي مجموعة من الأفراد ،على الخط، يتشاركون في تفاعل رقمي على نحو ما، له خصائصه التكنو-اجتماعية. وربما يشير المفهوم أيضًا إلى

جماعات تشترك في خصائص اجتماعية أو تنظيمية أو ثقافية ، أو ربما يشتر ك أعضاء هذا المجتمع الافتراضي في توجهات فكرية، أو اهتمامات علمية، أو اقتصادية ، أو فنية ، أو إعلامية .

ثالثاً– المجتمع الافتراضي والواقعي وعلاقاتهما من وجهة نظر سوسيولوجية:

إذا كان مفهوم الجماعة الاجتماعية التقليدية يضرب بماض بعيد في تاريخ علم الاجتماع، الأمر الذي حتم دراسة الجماعات الاجتماعية وتفاعلاتها وعلاقاتها والظواهر المختلفة المرتبطة بها بأشكال وطرق متعددة اعتمادا على فلسفات وخلفيات اجتماعية متباينة، فإن عالم اليوم قد أفصح عن نمط جديد من الجماعات أول ما يميزها أنها لا تاريخ لها، سواء على صعيد الواقع أو على صعيد الدراسات الاجتماعية. والجديد في هذا الشأن أن الإنترنت قد أسهم في خلق أنماط غير تقليدية من الجماعات، ومن العلاقات والتفاعلات التي لا ترتبط بهوية أو قومية بذاتها، ولا ترتبط أيضاً بإطار فيزيقي– متعين أو مكاني– محدد المعالم والأبعاد، فهي جماعات وتفاعلات وعلاقات تتم عبر الفضاء المعلوماتي الذي تشكل بفضل الشبكة العنكبوتية، ولا يشترط في تأسيس هذه الجماعات بيئة جغرافية واحدة أو هيكل أو بناء محدد لها على النحو المتعارف عليه في الجماعات التقليدية، حيث تتم العضوية في هذه المجتمعات بمجرد معرفة العضو المتفاعل لاستخدام تقنية العبور إلى الجماعة بالإضافة إلى الاهتمامات المشتركة فتسمى المجتمعات الافتراضية.

أ–**المكان والزمان بين البيئتين الافتراضية والمتعينة أو الواقعية:** لقد أسهم الإنترنت والذي يعد أحد منجزات الثورة الاتصالية في تشكيل فضاء جديد هو الفضاء الرمزي Cyber space بوصفه إطاراً جديداً لعلاقات اجتماعية عابرة للقوميات والأماكن، بينما المتعارف عليه أن الجماعة الاجتماعية التقليدية هي مجموعة من الأفراد يعيشون في بيئة جغرافية ومكانية واحدة، يجمع بينهم قيم مشتركة وشعور بالانتماء، تحكمهم قيم وأعراف يجتمعون عليها، ويتفقون فيما بينهم على وسائل الردع وقواعد الضبط الاجتماعي التي تحكم ما يحدث بينهم من علاقات . أما الإنترنت فقد أسهم في تشكيل علاقات تتجاوز الإطار الفيزيقي المكاني والتفاعل وجهاً لوجه، وشكل مستخدموه، وخاصة الذين يجمع بينهم اهتمامات مشتركة جماعات يطلق عليها Virtual Community – الجماعات الافتراضية، وهي شكل جديد من أشكال التفاعل الإنساني اللا مكاني وتتكون هذه التجمعات من مجموعة من الأفراد الذين يستعملون الحاسب الآلي للاتصال بينهم متجاوزين الحدود المكانية، وذلك يختلف عن الاتصال وجهاً لوجه.

لقد نجح الفضاء الرمزي الذي شكله الإنترنت في الجمع بين أفراد ينتمون إلى هويات مختلفة ويعد هاورد رينغولد Haward Rhingold من الأوائل الذين ساهموا في توجيه نظر العالم صوب دراسة المجتمعات الافتراضية وقد جاء ذلك في كتابه الجماعات الافتراضية Virtual Community– والذي يؤكد فيه بأن هذه الجماعات تجمعات اجتماعية تشكلت من أماكن متفرقة في أنحاء العالم يتقاربون ويتواصلون فيما بينهم عبر شاشات الكمبيوتر والبريد الإلكتروني يتبادلون المعارف فيما بينهم ويكونون صداقات. و يجمع بين هؤلاء الأفراد اهتمام مشترك ويحدث بينهم ما يحدث في عالم الواقع من تفاعلات ولكن ليس عن قرب أو وجهاً لوجه، وتتم هذه التفاعلات عن طريق آلية اتصالية في بيئة افتراضية هي الإنترنت الذي أسهم بدوره في حركات التشكل الافتراضية (زكي،2009).

وقد أطلق Ronldo A– Beghett على التفاعلات التي تتم داخل التجمعات الافتراضية تعبير "اتصال إلكتروني تفاعلي"، و يضم هذا الاتصال أفرادا متنوعين يشتركون في نفس الأفكار والأنشطة (زكي، 2009). وعلى الرغم من أن هذه الاتصالات تفاعلية إلا أن المشتركين في هذه التفاعلات هوياتهم غير معروفة، فالفرد في التجمعات

الافتراضية بوسعه **التنكر** في أكثر من شخصية، ويستطيع الفرد بذلك أن يعيد نفسه في ذات الجماعة بأكثر من هوية، وهذا هو الجزء الذي يقف تحديا أمام دراسة هذه التجمعات.

إن أهم ما يميز التجمعات الافتراضية هي أنها متاحة للأفراد الذي يريدون المشاركة في أحد أنماطها، فالمدينة الافتراضية أو اللا مكانية، على حد قول البرتا روبرت Alberta Ropert وميشيل جينكنسون Jenkinson Michael، مدينة لا تنام، وذلك على العكس من المدينة المكانية والزمانية، فهناك دائما أفراد يشتركون في التفاعلات الافتراضية حتي في منتصف الليل(زكي، 2009). ولا غرابة في ذلك فلقد أصبح الإنترنت بشكل عام جزءاً من حياة الناس، والجماعات الافتراضية بأنماطها المختلفة باتت تشكل أهمية للعديد من المهتمين بالإنترنت بوجه خاص، وذلك ما دعا ماريا باكردجيفا Maria Bakardjieva لتقول في كتابها " التكنولوجيا في حياتنا اليومية – Technology in everyday life أن الحاسوب أصبح أسلوب حياة (زكي،2009).

إن البيئة الافتراضية تبدو وكأنها منفلتة من شرط المكان وبالتالي فإن الظروف الموضوعية غائبة، وما هو موجود تقنية رفيعة المستوى عبر خطوطها المبتكرة يلتقي البشر الواقعيين، عن بعد، ليؤسسوا لأفعال وردود فعل أو سلوكات افتراضية طابعها رقمي رمزي ومختزل يفرغ البيئة الافتراضية من أي مدلول اجتماعي، وباختصار هي بيئة تفتقر للطابع الاجتماعي حتى وإن تحقق شرط الاتصال والتواصل، وهذا ما سنناقشه في الفقرة الآتية.

ب–الاتصال والتواصل كأساس للعلاقات الواقعية والافتراضية: ثمة شروط للعلاقات الاجتماعية الواقعية لابد من تحققها، وأولها شرط " الاتصال " وجهاً لوجه بين اثنين أو أكثر من الأفراد الاجتماعيين، والثاني هو شرط " التواصل "، أي استمرارية الاتصال لفترة طويلة من الزمن. والاتصال بدون تواصل لا يؤسس لعلاقات اجتماعية، فلقاء شخصين في حافلة لنقل الركاب وتبادلهما لأطراف الحديث لا يعد علاقة اجتماعية، نظراً لعدم توافر التواصل والاستمرارية. ذلك ما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية الفعلية. ويرى عصام سليمان موسى أن الاتصال من حيث المبدأ هو قبل كل شيء عملية نفسية –اجتماعية ضرورية تقوم على نظام مشترك من الرموز والمعاني بين الأفراد في المجتمع، وقد مرت هذه العملية بمراحل متلاحقة من النمو والتطور، إلى أن وصلت إلى الوسائل الحديثة وظهور الشبكة العنكبوتية(الموسى،1998). أما التواصل فيعرف بأنه:" عملية تبادل للأفكار والمعلومات والقناعات والأفكار والتجارب والمشاعر عبر وسائط متنوعة لفظية وغير لفظية، كالكلام والكتابة والأصوات والصور والألوان والحركات والإيماءات، أو بواسطة رموز مفهومة، وذات دلالة لدى الأطراف المشاركة فيه، سواء أكانوا أفراداً أم جماعات، وقد يكون ذاتياً شخصياً، أو غيرياً، وقد ينبني على الموافقة أو التعارض والاختلاف" (اسماعيل،2003).

ثمة عوامل عديدة تشير إلى أن التواصل أمر معقد، وهو سابق للعلاقات والعمليات الاجتماعية، إضافة إلى كونه مهارة وفن لا يخلو من الذكاء الاجتماعي لمد الجسور بين الأشخاص، ومن أهم العوامل التي من شأنها أن تجعل التواصل إيجابياً المهارات الكلامية، والمظهر الفيزيائي للأشخاص، والشعور بالإعجاب والمحبة، وقبل هذا وذاك ما يحمله شخص ما من الأفكار والمبادئ والمعتقدات، وما يتمتع به من قدرة على حسن الإدارة والاستثمار للغة الجسد(شحرور،2009). كما ترتبط عمليات الاتصال والتواصل في العلاقات الاجتماعية الفعلية بجملة من الأمور الأخرى أهمها : أن يميز الفرد الأفراد الذين يتفاعل معهم على أعضاء في مجتمع أو طبقة، وأنهم كائنات حية نشطة تسهم في سد حاجاته المختلفة من نفسية واجتماعية ومادية، وأن طرق معاملتهم له ومعاملته لهم تتحدد بالفروق الفردية في المزاج والشخصية والاهتمامات والقدرات، فكلاً منهم يؤثر في الآخر بحيث يستدعي استجابات معينة وهو يستجيب

للآخرين نتيجة سلوكهم نحوه متأثراً بما تقدمه الثقافة العامة من أفراد ومواقف، فتنشأ المدركات والمفاهيم المشتركة بين أعضاء المجتمع. فأين التفاعلات والعلاقات القائمة في المجتمع الافتراضي من كل ذلك؟.

لا يختلف اثنان في أن الرغبة في الاتصال والتواصل مع الغير هي نزعة متأصلة لدي الإنسان ومهما قيل عن حوار الإنسان والآلة والإبحار في محيطات الإنترنت، فليس هناك ما هو أروع للإنسان من أن يقيم حواراً مع إنسان غيره على الطرف الآخر يشاركه اهتماماته وهمومه ويتبادل معه معارفه وخبراته. ولقد اقترب اليوم الذي لن يبقى فيه شيء يصعب على الإنسان أن يشارك فيه غيره وذلك بفضل تكنولوجيا المعلومات. ومن الطبيعي أن تنمو الرغبة في التواصل مع ما نشهده في زماننا هذا من مظاهر الاغتراب، والانكفاء على الذات، وانقطاع الصلة حتى مع جار السكن. ربما يفسر لنا ذلك سرعة انتشار الجماعات الافتراضية على الإنترنت . فالإنترنت ساهمت في تشكيل وعي الفئات الاجتماعية التي تتفاعل داخلها، كما تقوم أيضا بدور حيوي في تكامل منظومة ثقافية متميزة ومختلفة، والأهم في هذا الصدد هو أن البنية المعلوماتية الجديدة توفر تفاعلاً بين منظومات الثقافات المختلفة، فالثقافة التي تجمع بين الأفراد الذين يتفاعلون عبر شبكة المعلومات الدولية –International net أطلق عليها لفظ الثقافة السيبرية Cyber cultureوهي مجموعة متكاملة من النقلات النوعية علي الصعيد الثقافي.

يشكل النمط الثقافي الجديد إطاراً خاصاً يجمع بين المنخرطين في التفاعلات الافتراضية في وقت ينتشر فيه، على نحو متسارع، نمو العلاقات الاجتماعية العابرة للقوميات والحدود. و يزداد التفاؤل تارة والتشاؤم تارة أخرى إزاء هذه الظاهرة، فالبعض يرى أن العلاقات الاجتماعية الجديدة تؤدي إلى تدعيم الحرية والحوار المتبادل، وتفتح المجال أمام تبادل الأفكار، والخروج عن الضوابط التقليدية التي تحد من الحريات، في حين أن البعض الآخر يجد أن الإنترنت تساهم في سحب الناس من مجتمعاتهم ليصبحوا أقل ارتباطا بقومياتهم، مما يثير القلق حول مستقبل الانتماء إلي المجتمع الحقيقي –Real society ، كما أن الإنترنت تخلق فرصاً ليس لها مثيل لمراقبة حياة الناس الخاصة سواء من قبل بعضهم بعضاً أو من قبل جهات أخرى. من الممكن القول أن المجتمع الافتراضي يقوم حقاً على الاتصال، وعلى استمرارية الاتصال بين أعضائه ، أي التواصل، و هي ذات الشروط الأساسية التي عادة ما تؤسس للتفاعلات والعلاقات الاجتماعية الفعلية، غير أن العلاقات والتفاعلات الطبيعية، إنما تستند إلى الاتصال والتواصل الاجتماعي. والاتصال الاجتماعي تعريفاً هو التقارب بين شخصين أو أكثر، أو فرد وجماعة عبر وسيلة ما، شريطة أن يتم وجهاً لوجه، وأن تقوم بين الأفراد المشكلين لتلك التفاعلات والعلاقات روابط حسية واقعية وفي بيئة معاشة ومتعينة، وتستخدم فيها مختلف الحواس المعروفة من اللمس والرؤية والإصغاء عن قرب إضافة إلى الأحاسيس والمشاعر الحميمة والعواطف والانفعالات المختلفة المتوالدة والمتصاعدة في ضوء طبيعة العلاقة القائمة ونوعها أو شكلها ومآلها أو الغاية منها، وكل ذلك في ضوء، أو على هدي، ما استقرت عليه البيئة الاجتماعية المعاشة من قواعد ضبط ومثل عليا هي أشبه ما تكون بعلاقات وسلوكات نموذجية من المفترض أن يتقيد بها أعضاء المجتمع، وقد لا يفعلون، وعند ذلك تكشف تلك النماذج عن جزاءاتها الضاغطة التي تعيدهم إلى الصراط المستقيم . وعادة ما يكون هناك إجماع على تلك القواعد، عدا نفر من الناس وضعت من أجلهم الجزاءات الضاغطة.

من الجائز أن يتوافر الاتصال والتواصل في التفاعلات والعلاقات الافتراضية، ومن الجائز أن تتوافر الأفعال وردود الأفعال المؤسسة لتلك التفاعلات والعلاقات، لكنها ووفقاً للمنظور الذي استندنا إليه تقع خارج التحديد الاجتماعي، ولذلك لا تعد اجتماعية الطابع، بل هي بالضبط تقع خارج النسق والنظام الاجتماعيين، فالاتصال والاتصال هنا يتمان عن بعد مما يحول دون حضور الجانب الفيزيولوجي والبيولوجي المتكامل من الشخصية، وكذلك

الجانب النفسي والانفعالي وبالتالي الاجتماعي، خاصة وأن كل تفاعل أو علاقة اجتماعية بين الفرد والآخرين في الحياة الاجتماعية الفعلية إنما هو تفاعل بين العوامل البيولوجية والاجتماعية، وبدون الفرد البيولوجي كما هو في الواقع الفعلي لاوجود للسلوك، وهذا السلوك لن يتمتع بالصفة الاجتماعية دون الوجود البيولوجي والاجتماعي للآخرين ممن يتفاعل الفرد معهم. فهل يحصل ذلك بالنسبة للمنخرطين في تعاملات وتفاعلات وعلاقات المجتمع الافتراضي؟ وما هو واقع الحال فيما يخص العلاقات المنشأة تحديداً في المجتمع الافتراضي؟.

ج- السمات العامة للعلاقات والتفاعلات الاجتماعية والافتراضية : إذا كانت العلاقات والتفاعلات الاجتماعية الفعلية تتم في واقع معاش ومتوضع في إطار المكان والزمن المعينين فإن العلاقات الافتراضية تقف خارج المجال المكاني المتعارف عليه، كما أن الزمن يبدو زمناً مختلفا، ولكن قبل توضيح ذلك لابد من التأكد فيما إذا كانت الشروط اللازمة لقيام العلاقات والتفاعلات الاجتماعية المتفق عليها واقعاً تنطبق على العلاقات والتفاعلات في المجتمع الافتراضي؟. إن المتأمل لواقع حال العلاقات و التفاعلات الافتراضية يدرك أنها لا ترتبط ببنية أو بيئة أو هوية محددة كونها تتم من خلال وسيط إلكتروني وهو الإنترنت. وفي هذا الشأن يمكن الخروج بمجموعة من **السمات** التي تميز هذا النمط من العلاقات و التفاعلات الافتراضية ومن أهمها:

1- القطيعة: إن المتأمل لحقيقة التجمعات الافتراضية، على اختلاف تكوناتها، يدرك أن الانخراط المستمر في علاقاتها وتفاعلاتها سوف يؤدي إلى تعزيز قطيعة بينة على صعيد التفاعلات والعلاقات الاجتماعية المتعينة أو الواقعية، فالعلاقات الافتراضية من الممكن أن تؤدي إلى تعزيز الانقطاع الواقع في العلاقات الواقعية مع الأصدقاء الفعليين والواقعيين والناجم عن تعقد الحياة العصرية وصعوبات تأمين احتياجاتها، كذلك من شأنها أن تترك تأثيراً لا يستهان به على العلاقات الأسرية بشكل خاص. ومن الممكن لهذه العلاقات أن تستهلك الوقت في علاقات تخرج بالفرد عن إطار العلاقات الفيزيقية –الطبيعية لتسبح بالفرد في فضاء جديد هو الفضاء الرمزي، فالفرد الاجتماعي المنخرط في العلاقة الافتراضية من الممكن أن يكون له مئات الأصدقاء على الخط ولكن لا أصدقاء في الوقت ذاته، وترتفع وتيرة هذه النظرة المتشائمة تبعاً لارتفاع وتيرة التفاعلات الافتراضية وتجاوزها لتفاعلات الفرد الواقعية.

2- الخروج عن السيطرة: تتسم التفاعلات الاجتماعية الافتراضية بتعددية المراكز وتبادلها، كما أن العلاقات الناجمة عنها لا مركز لها، وهي علاقات تقع خارج السيطرة، فداخل المنتديات أو غرف المحادثة لا يوجد سلطة مركزية توجه الحديث، وكل فرد يستطيع أن يكون مركز الجماعة في كثير من الأحيان، كما يستطيع قيادة الحوار مرة أو مرات، ويعني ذلك أن التفاعلات الافتراضية تفاعلات لا يمكن احتكارها من قبل شخص يهيمن عليها أو يفرض سيطرته على الحوار الدائر فيها. ولأن التفاعلات داخل الجماعات الافتراضية كلها تفاعلات لا مركزية، فإن تبادل الأدوار وارد في هذه التجمعات، فهي تسمح بتعدد المراكز والأدوار وتبادلها في الوقت ذاته.

3- التخفي والتمويه والجهل بالهوية: إن العلاقات الاجتماعية الافتراضية في معظمها علاقات تنشأ في تجمعات خفية مجهولة الهوية، إلا في القليل منها، فالفرد المنخرط في التفاعلات والعلاقات الافتراضية له الحق في إخفاء نفسه تحت مسميات مختلفة، أو الانفصال عن هويته الاجتماعية والشخصية الحقيقية، وأحياناً يدخل التفاعلات باسم أحد المشاهير، وأحياناً باسم طائر من الطيور، وأحياناً يدخل الذكور بأسماء الإناث والعكس صحيح أيضاً، وأحيانا يدخل بأسماء فكاهية ... إلخ . فهوية الفرد أو شخصيته تختفي في ظل هذه التفاعلات بل وتتباين في قوالب عديدة وذلك على العكس مما هو عليه واقع حال التفاعلات الاجتماعية الحقيقية، إلى درجة أن الداخل في التفاعلات

الافتراضية والمنخرط فيها لا يستطيع أن يعرف من يتحدث إلى من نتيجة تعدد هويات الأفراد وتزييفها في صور متعددة؟.

4- التفكك: إن التكنولوجيا كثقافة، وابتكار الواقع الافتراضي وعوالمه الالكترونية أديا إلى تفكيك العلاقات الفيزيائية بين الأفراد. ونقصد بذلك أن تفاعلات الواقع الافتراضي التي تتم في إطار الإنترنت أثرت على التفاعلات والعلاقات القائمة على أساس وجهاً لوجه. فتشكل الفضاء الرمزي أدى إلى تفكك العلاقات الفيزيقية- الطبيعية، ليحل محلها مكون جديد من أنواع العلاقات المسماة افتراضاً اجتماعية تشكلت على المستوى الافتراضي. وتشير الدلائل الواقعية إلى أن هناك مزيداً من الاتجاه نحو التفاعلات الافتراضية، وخاصة في ظل التحديات الطارئة على مستوى الواقع المعاش وتعقيداته.

إن الاستنتاج القائل بأن حاسباتنا تبعدنا عن عالمنا يبدو استنتاجاً صحيحاً ومنطقياً كلما لاحظنا ما يمكن للإنترنت أن يؤديه من دور سلبي في التأثير على الأشخاص، وذلك حين أتاح الفرصة الواسعة لتكوين علاقات اجتماعية مختلفة ومتنوعة سهلة وميسرة عبر فضائه على العكس مما يحصل في العالم الحقيقي، ففي الواقع المعاش نحتاج دائماً إلى ترك مسافة فاصلة بيننا وبين الآخر ونأخذ مزيداً من الوقت قبل الانخراط في علاقة معه اجتماعياً وعاطفياً، وذلك ريثما نملأ تلك المسافة بالمعنى والتعرف عليه عن كثب من حيث اهتماماته وميوله وأفكاره وطباعه ومن ثم تكوين انطباع عنه، ومن ثم تتبلور علاقتنا به، ولذلك كثيراً ما نشعر عند خسارة الحبيب أو الصديق وكأن عالمنا قد انهار، في حين أن ذلك ملغى في العالم الافتراضي نتيجة اليسر والسهولة في إقامة التفاعلات والعلاقات أو الخروج منها. إن من شأن ذلك أن يؤدي مع اتساع النطاق الافتراضي إلى ظاهرة العزوف عن العلاقات الواقعية، وأن يسهم في تفكيك ما هو تقليدي من العلاقات الاجتماعية مع التقدم المضطرد في تشكل ما هو افتراضي على المستوي العالمي، خاصة وأن الجماعات الافتراضية المنخرطة في هذه العلاقات لا ترتبط بهوية بذاتها أو قومية معينة.

5- التمرد: لقد فتح الفضاء السيبري مجالاً جديداً لبروز نوع من التفاعلات يمكن أن نطلق عليه تعبير تفاعلات الخروج على الضوابط التقليدية، لقد فتح الإنترنت مجالاً جديداً لتفاعلات تقوم على الانعتاق من مختلف أنواع الضوابط الاجتماعية المعروفة في المجتمعات الواقعية وسلطاتها التقليدية، فالمجال مفتوح في الفضاء الرمزي للاتفاق على نشاطات مختلفة دون قيود . ويدرك المتأمل لحركة التفاعلات على المستويات القومية أو العالمية أن الإنترنت وتجمعاته الافتراضية يشكل آلية رئيسية أسهمت، دون شك، في تقارب المسافات والاهتمامات وتبادل الآراء ووجهات النظر، على اختلافها أو توافقها، بلا قيد حول مختلف القضايا والمشكلات والظواهر.

6- النزعة الفردية أو لا اجتماعية التفاعلات الافتراضية: هناك نزوع في المجتمع الافتراضي وتفاعلاته نحو الفردية، ونقصد بفكرة الفردية هنا الانعزال عن السياق الاجتماعي المحيط بالفرد، فالفرد المنخرط في التفاعلات الافتراضية- حتى وإن كانت تفاعلات جماعية- إلا أنه يدخل على الخط بوصفه فرداً من أمام شاشة كمبيوتر خاصة به تأخذه من عالمه الواقعي إلى عالم افتراضي . ونتيجة الاستغراق في التفاعلات والعلاقات الافتراضية من الممكن أن يؤدي ذلك، إذا تجاوز الحد، إلى نوع من أنواع انفصال الفرد عن واقعه الحقيقي. ولذلك تبدو مواقع التواصل الاجتماعي المطروحة مجاناً، وبلا تكلفة تذكر، باباً يعبر منه الأفراد الاجتماعيين الفعليين ليخلفوا ورائهم علاقاتهم الفعلية أو الاجتماعية الحقة، متحللين من اجتماعيتهم الحقة ومن عالمهم الاجتماعي، لينخرطوا في عالم منشأ على أرضية إلكترونية الخيار الأول فيه خيار فردي النزعة بامتياز، وتحسب فيه العلاقات بطريقة آلية. فبمجرد التسجيل تطرح عليك هذه المواقع خيارات من أفراد للدخول في علاقات معهم بوصفهم أصدقاء وبنقرة واحدة، لكنهم بالمقاييس الواقعية

للعلاقات ونواظمها التقليدية ليسوا كذلك. فكم من الوقت يلزم في الأحوال الواقعية لتكوين الصداقة والتعرف على الآخر، أفكاره، مزاجه، قيمه ومبادئه، بوصفه مشروعاً للصداقة كعلاقة اجتماعية فعلية. وكم تحزننا وتثير فينا مشاعر الألم خسارتنا لصديق في الواقع المعاش؟. أما في العالم الافتراضي فكل ذلك مفتقد، ولا مكان له في العلاقات المنشأة نشأة افتراضية، ففي لمح البصر تنهض الصداقة الافتراضية، وبلمح البصر تؤول إلى السقوط.

خامساً– الاغتراب الاجتماعي ولا اجتماعية المجتمع الافتراضي:

إذا كان المجتمع الافتراضي نفسه مجتمعاً يخلو من الصفة الاجتماعية فإن الشخصيات التي يضمها ستكون شخصيات لا اجتماعية، أي شخصيات منسحبة من اجتماعية الحياة المعاشة، ومن اجتماعية علاقاتها الفعلية وعملياتها التفاعلية، ومن المعايير الاجتماعية التي تحكمها إلى اجتماعية افتراضية تعد، قياساً لما هو اجتماعي بالفعل، بلا قواعد ناظمة بالمعنى الاجتماعي للكلمة. وما يمكن قوله أن هناك تسويقاً للعزلة الاجتماعية يتم عبر المجتمع الافتراضي، وعبر الانخراط في العلاقات الافتراضية، وما الانخراط في سيكولوجيا الخروج عن الأطر التقليدية للقيم والعلاقات الاجتماعية الفعلية سوى تمهيد محسوب، على ما يبدو، لتحطيمها وإحلال بدائل افتراضية عنها. فالمطلوب إعداد أعضاء مناسبين هم بالضبط أولئك الذين يسقطون من الحساب الاجتماعي الفعلي ليضافوا إلى رصيد المجتمع الافتراضي. وإذا لاحظنا أن أكثر الفئات العمرية استخداماً للاتصال والتواصل الرقمي، وأكثر الباحثين عن العضوية في المجتمع الافتراضي هي الفئات العمرية الصغيرة والمراهقة والشابة، سوف لا نحتاج إلى عناء كبير لاستخلاص العبر والدلالات حيث العمل عبر اليسر والسهولة والتكلفة المتدنية للحصول على عالم من الإبهار الرقمي الحر بعيداً عن القواعد التقليدية الناظمة للعلاقات والتفاعلات والعمليات الاجتماعية الحية والفعلية وتعقيداتها وتشابكها.

يكمن إغراء المجتمع الافتراضي وتفاعلاته وعلاقاته في أن كل مستخدم يحظى بميزة أن هذا العالم الرقمي عالمه الخاص المتاح له بأوسع أبوابه، وما يبدو انفصالاً مؤقتاً لساعات عن المجتمع المعاش سيتحول مع الزمن إلى عزلة تغذيها وتحميها من الرقابة الاجتماعية تقنيات الاتصال وأسرارها وخفاياها والتي تقدم مجالات لا حدود لها، ليس للنخب فقط بل ولكل الناس للحاق بنماذج معينة تصبح حلماً أو نموذجاً يجري إتباعه كبديل اجتماعي وقيمي، مزاحم أولاً وبديل ثانياً لمنظومة القيم التقليدية للمجتمع. ويبدو أن صراعاً ليس بالظاهر اليوم تتبلور ملامحه وسيكون مسرحه المستقبل بين ما يبدو اليوم أقلية منخرطة في المجتمع الافتراضي من جهة، وأكثرية ستحاول كبح جماح هذا العزوف عن المجتمع الفعلي وعلاقاته وقيمه من جهة أخرى. ولا ينكر أحد اليوم أن ثمة ضعف يدب في أوصال الانتماء للمجتمع الفعلي أو الواقعي المعاش ونمط حياته، ولا أحد ينكر أن ثمة خلل في الواجبات الاجتماعية للمستخدمين للشبكة الرقمية، وخاصة من الفئات العمرية الشابة، غير أن هناك من يحاجج بأن الانخراط في المجتمع الافتراضي وعلاقاته على حساب المجتمع الفعلي هو حالة عالمية، وهذا صحيح لكن الاختلافات الحاصلة بين المجتمعات من حيث البنى والنظم والقواعد والاحتياجات والأهداف يجعل وضع المستخدمين في سلة واحدة أمراً يشك في نواياه.

لا أحد ينكر أن التقنية، وخاصة تقنية الاتصالات، قد سهلت الحياة، لكنها غربت الناس أكثر فأكثر عن حياتهم المعاشة، ولنلاحظ فقط كيف أن القراءة التقنية تبدو بديلا للقراءة التقليدية، في وقت لا يمكن للقراءة التقنية أن تكون بديلاً حقيقياً للنتائج الفعلية للنمط التقليدي من القراءة. إن المجتمع الافتراضي يعد مزيجاً من المخاطر والفرص معا، إذ ينطوي على إمكانات ضخمة للتلاعب والعبث بالناس تنطوي عليها الاتصالات الرقمية، وما من شك أن مجال المقارنة بين وسائل النقل والاتصال وتبادل الخدمات والرسائل والعلاقات التقليدية من جهة، والاتصال الرقمي من جهة أخرى

أمر غير وارد. وهو يظهر حجم ما حصل من تطور هائل لم تكن تحلم به البشرية يوما، ولكن من حقنا التساؤل إلى أين يمضي كل ذلك بالمجتمع الحقيقي وعلاقاته الفعلية، واجتماعيته؟.

إن منظومة القيم الفعلية، كقواعد ناظمة للتفاعلات والعمليات والعلاقات الاجتماعية هي قيم فاعلة حقاً في الواقع الفعلي، الواقع المعاش، وفي بيئة اجتماعية معينة تحتل حيزاً من المكان، أما حين يختلف المجتمع، ليصبح افتراضياً فنحن بالضبط أمام نفي القيم، لأن دورها معطل في مثل هذا المجتمع، ولذلك يخشى من أننا بالفعل أمام عملية فك وتركيب تجري تحت ناظرينا، فالمجتمع الافتراضي من المرجح أن يكون له منظومته القيّمية الخاصة به، لأنه بالضرورة سيقدم نماذج معينة لتكون بديلاً قيمياً ناظماً لعلاقاته وتفاعلاته الرقمية. ومن حقنا التساؤل ما هو المرشح للاختفاء بعد أن يشمل التحكم التقني الكثير من المجالات؟.

وهاهي التقنية تقتحم بلا هوادة حتى الأدوار الاجتماعية التقليدية لتقسيم العمل بين الذكور والإناث فماذا سيكون عليه وضع نساء الحياة اليومية، نساء كل يوم، من أمهات وربات منازل وعاملات إذا جاء وقت تم فيه تعميم آخر مكتشف وهو المطبخ الرقمي؟ والذي لن يقف عند حد التأثير المحدود، وإنما سينعكس على طبيعة العلاقات الزوجية والاجتماعية الأسرية وسيضع الأدوار الداخلية برمتها على قائمة الترشيح للاختفاء من إدارة المنزل إلى الإنجاب ورعاية الأولاد. والمهم في الأمر أن وسائل الاتصال والتواصل الحديثة تعمل، شئنا أم أبينا، على الحد من التواصل الاجتماعي الفعلي بين البشر والقائم على استخدام الأحاسيس والحواس، فالتواصل الرقمي لايعد اجتماعياً بقدر ما هو تبادل للمعلومات، فلغة الجسد والحميمية مفتقدة عبر الانترنت، والناس حين يعتمدون على هذه الوسائل للتواصل إنما يستخدمونها كبدائل للوسائل الاجتماعية التقليدية، وكثر ممن يتعاملون بالاتصال التقني يقدرونه على أنه السبيل لتواصل أكثر عصرية بسهولة ووقت وتكلفة أقل، دون أدنى إدراك لما هو آيل للتفكك والزوال. فاللقاء المباشر ووسائل الاتصال والتواصل التقليدية ليست مجرد أدوات أو قطع ملابس عتيقة أو موضة عابرة، إنها تعبير ليس فقط عن حميمية ستصبح مفتقدة مع الوقت، وإنما هي مظاهر رمزية للهوية والثقافة الاجتماعية الحقة بالدرجة الأولى، وكل ذلك على المحك اليوم، مما يرتب على مؤسسات التنشئة الاجتماعية القائمة في المجتمع الفعلي مسؤولية الدفاع عن اجتماعية القيم والعلاقات والعمليات والتفاعلات الفعلية قبل أن تكتسحها البدائل الافتراضية.

الاستنتاجات والتوصيات:

أولاً– إن المجتمع الافتراضي لم يكن ليظهر فجأة وإنما حدث نتيجة عدد من العوامل التي مهدت لظهوره من أهمها الشبكة الدولية للمعلومات وتشكل الفضاء الرمزي.

ثانياً– من الواضح أن هذا المجتمع لم تكتمل صورته بعد، نظراً لارتباطه بتكنولوجيا الاتصال، وبمجتمع المعلومات العالمي، وهذا المجتمع هو قيد التشكل، الأمر الذي يجعل التكهن بالصورة النهائية له صعب المنال، نظراً لسرعة التغيرات التي يمر بها.

ثالثاً– يزداد عدد المتفاعلين في السياق الافتراضي يوماً بعد يوم، إذ أن هذه التفاعلات بدأت على المستوى النخبوي، والآن يتعامل معها كل من يجيد استخدام أساسيات التعامل مع الكمبيوتر السهلة والميسرة.

رابعاً– لا يرتبط الانخراط في تفاعلات المجتمع الافتراضي بشريحة عمرية أو اجتماعية محددة فجميع الأعمار منذ الطفولة حتي الشيخوخة، ومن مختلف الفئات الاجتماعية تتفاعل في هذا السياق.

خامساً– يقع التفاعل الافتراضي والعلاقات المترتبة عليه خارج نطاق المكان والزمان المعينين في الواقع الفعلي.

سادساً– إن التفاعلات والعمليات والعلاقات القائمة في المجتمع الافتراضي لا تعد اجتماعية بمعنى الكلمة، لأنها لا تتم في بيئة اجتماعية محددة الهوية والمكان، كما أنها لا تتم وجهاً لوجه وتفتقر لتلاقي الجانب البيولوجي والفيزيولوجي مع الاجتماعي أثناء عمليتي الاتصال والتواصل.

سابعاً– تكف القيم كقواعد ناظمة للتفاعلات والعمليات والعلاقات الاجتماعية الواقعية عن القيام بوظيفتها أثناء التفاعلات الافتراضية، خاصة وأن التخفي من أبرز ملامح وسمات الأعضاء في المجتمع الافتراضي.

ثامناً– إن ما تقدم لا يعني أن المجتمع الافتراضي سيزيح المجتمع الواقعي ليحل محله، لكنه يفتح المجال واسعاً أمام التفاعلات التي تخرج عن السياق المتعارف عليه لدى المجتمعات المحلية والواقعية، وسيطرح ذلك أكثر من سؤال ومشكلة حول مستقبل التفاعلات الواقعية في ظل الانخراط في التفاعلات والعلاقات الافتراضية، وماذا سيكون عليه مستقبل التفاعلات والعلاقات الأسرية على وجه الخصوص في ظل اتساع نطاق المجتمع الافتراضي؟.

المصادر والمراجع

المصادر:

*القرآن الكريم

1–أبو جيب، سعدي. *القاموس الفقهي*. دار الفكر، دمشق،1982 . ط1، ص311.

2–ابن كثير، إسماعيل. *تفسير ابن كثير*. دار يوسف، بيروت، 1983 . ص26.

3–أرسطو. *علم الأخلاق*. ت: أحمد لطفي السيد، دار الكاتب العربي،القاهرة، 1992، ج، ص49–50.

4–أفلاطون. *الجمهورية*. ت:فؤاد زكريا، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1968،ص102.

5–رضا، أحمد،*متن اللغة*، دار مكتبة الحياة، بيروت،1960،م4،ص685.

6–السيوطي، جلال، والمحلي،جلال، *تفسير الجلالين*، دار ابن كثير،دمشق،1944،ص284.

7–صليبا،جميل، *المعجم الفلسفي*،دار الكتاب اللبناني،بيروت،1979،ص.213

8–الفارابي، محمد أبو نصر ،*آراء أهل المدينة الفاضلة*، مطبعة التقدم،القاهرة،1907،ط2،ص20.

***المراجع العربية:**

1– أبو عرقوب،إبراهيم،*الاتصال ودوره في التفاعل الاجتماعي*، دار مجدلاوي، عمان،2005،ط4،ص165.

2– إسماعيل، محمود حسن، *مبادىء علم الاتصال ونظريات التأثير*،الدار العالمية،القاهرة 2003،ص36.

3– حمادة، بسيوني إبراهيم، *تكنولوجيا الاتصال*، جامعة الإمارات، الإمارات،2000،ص.17

4– حمادة، بسيوني إبراهيم، *حرية الإعلام الالكتروني وسيادة الدولة*، مركز الدراسات والبحوث الدول النامية، جامعة القاهرة،القاهرة،2001،ص34–35.

5– الديربي، عبد العال، *المجتمعات الافتراضية* ، المركز العربي لأبحاث الفضاء الالكتروني، الرباط،2013،ص96–97.

6– رابوبرت، ا س، *مبادئ الفلسفة*، ت:أحمد أمين،دار الكتاب، بيروت،1969،ص210.

7– روية، ريمون، *فلسفة القيم*، ت:عادل العوا،جامعة دمشق، دمشق،1960،ص11.

8– زايد، احمد، *عولمة الحداثة وتفكيك الثقافات الوطنية*، عالم الفكر، المجلد3، تموز ،2003،ص16.

9 – زايد، أحمد، *سيكولوجيا العلاقات بين الجماعات*، عالم المعرفة،العدد 326، الكويت،نيسان،2006،ص43.

10– زكريا، فؤاد،*اسبيوزا*، دار التنوير، بيروت،1981،ط2،ص199.

11– زكي، وليد رشاد، *المجتمع الافتراضي مقاربة للمفهوم*، مركز الأهرام للدراسات الاستراتيجية، القاهرة، 2009،ص68–71–82.

12– السد،علي شيتي، *التفاعل الاجتماعي والمنظور الظاهري*، المكتبة المصرية، القاهرة، 2003، ص9.

13– شحرور، ليلى، *فن التواصل والإقناع*، الدار العربية للعلوم، بيروت،2009،ص121.

14– الطويل، توفيق، *جون ستيوارات ميل*، دار المعارف، مصر،القاهرة، د.ب، ص105.

15– عبد الحميد، شاكر،*الخيال من الكهف إلى الواقع الافتراضي*، عالم المعرفة، شباط، 2009، ص18.

16– علي، نبيل، حجازي، ناديا، *الفجوة الرقمية*، عالم المعرفة، العدد 318، الكويت، آب، 2005، ص248.

17– علي، نبيل، *العقل العربي ومجتمع المعرفة* ، عالم المعرفة، العدد 370، الكويت، كانون الأول، 2009، ص117.

18– العوا، عادل، *القيمة الأخلاقية*، جامعة دمشق، دمشق، 1960، ص37–38.

19– غالب، مصطفى، *ديكارت*،دار الهلال، بيروت،1979، ص137.

20– فيبر، ماكس، *مفاهيم أساسية في علم الاجتماع*، ت: صلاح هلال، المركز القومي للترجمة، القاهرة،2002،ص94.

21– القريشي، غني ناصر، *التفاعلات والعلاقات الاجتماعية*، جامعة بابل، العراق،2012، ص118.

22– كريسون، أندريه، *تيارات الفكر الفلسفي*، دار عويدات، بيروت، 1962، ص130.

23– كوفيليه، أرمان ، *مدخل إلى علم الاجتماع*، ت:نبيه صقر، دار عويدات، بيروت، ت، 1960، ط 1، ص85–86.

24– كول، ج.د.ه، *النظرية الاجتماعية*، ت: عبد الوهاب الكيالي، دار الطليعة، بيروت، 1964، ص92.

25– كومبزو يوسف، *القيمة والحرية*،، ت: عادل العوا، دمشق، 1975، ط1، ص66.

26– ماكيفر، ر.بيدج، تشارلز، *المجتمع*،ت: علي أحمد عيسى، مكتبة النهضة، القاهرة، 1961، ط 2، ص280.

27– موسى، محمد يوسف، *تاريخ الأخلاق*، مصر، 1943،ص59.

28– الموسى، عصام سليمان، *المدخل إلى الاتصال الجماهيري* ، مكتبة الكتاني، اربد، الأردن، 1998، ص225.

المراجع الأجنبية:

1-ADLER.F.(ed.),*The Value Concept in Sociology*, American Journal of Sociology, Chicago, University of Chicago Press,1981,Vol 92,No 16, p273.

2-COOLY, C.H. *His life and His Social Theory*. New York, Dryden Press, 1980, p223.